فهم الكلام الاستعاري.

أ د/ فريدة بوساحة

جامعة الإخوة منتوري. قسنطينة

الملخص:

يتناول المقال فهم الكلام الاستعاري لأن اللسانيات الذهنية نقلت اهتمام البحث من البنية اللغوية الاستعارية إلى البنية الذهنية للمؤول، قبل ذلك يتطرق المقال إلى الحاجة إلى الاستعارة سواء بالنسبة للمنتج أو المستقبل / الفرد، أو الفرد/ الجماعة.

يتطرق المقال أولا إلى الفهم الإسنادي باعتبار التركيب أول مستوى يعالجه المؤول عند استقبال أيّ رسالة كانت، ثمّ بعد ذلك ينتقل إلى الفهم الدلالي بما فيه القاموسي (لسانيات الكلمة)، ثم الدلالة المفهومية متناولا الصراع المفهومي التناقضي للبنية الاستعارية.

يبدو أنّ فهم البنية الاستعارية اللغوية وحدها غير كاف ممّا جعل اللسانيين يستحضرون موسوعة المؤول متضمنة للمعرفة السابقة المخزنة في الذاكرة، وامتلاك هذا الأخير لموسوعة مختلفة، متنوعة المشارب والمنابع يستعين بها عند محاولته فهم الاستعارة.

أخيرا يعالج المقال تأثر البحث الاستعاري عامة، وتأويله خاصة بالعلوم الذهنية فيما يخص تخزين المعارف في الذهن، وكيفية استرجاعها وتوظيفها عند تأسيس المؤول لاستعاريته التي تؤثر بدورها في منظومته المعرفية وحياته التخييلية وبعده التصويري ونظرته إلى عالمه.

Abstract:

The article examines the understanding of the metaphoric speech because mental linguistics quoted the interest in search of linguistic metaphoric structure to the mental structure of the interpreter.Before that the article treats the need to the metaphor both for the product or receiver/ Individual, or an individual / group.

the article in the begining deals with theAttributed understanding as the first level that treated by the interpreter when receiving any message , After that it moves to the semantic understanding, including lexical (linguistics wordthen the significance of addressing conceptual conceptual conflict paradoxical of the metaforic structure.

It seems that the understanding of the metaphoric linguistic structure alone is not enough, making the linguists invoke the mental structure of the intrpreter included previous knowledge stored in memory, and the owningof this one encyclopedia different variety of stripes and Headwaters uses them when he tried to understand the metaphor.

Finally the article addresses affected metaphoric Research in General, and its interpretation specialy with mental sciences regarding the storage of knowledge in the mind, and how to retrieve and use them at the founding of the interpreter for its metaphor which In turn affects in its system of cognitive and imaginative life and his view of his world.

1 ـ الحاجة إلى الاستعارة.

يبدو أن الدرس اللساني قد زحزح وأخر كثيرا دراسة الصورة الاستعارية والمقصود بالاستعارة في هذا البحث كلّ كلام إيحالي، ترميزي، يدلّ على غير ما وضع له، ذلك أنّ اللسانيات قد اهتمت مدة طويلة من الزمن في معظم بحوثها وأثناء أوّج ازدهارها بدراسة اللغة نظاما وشكلا وحللت النصوص بنيّة مغلقة بمناهج محايثة، أبعدت

الاستعارة لأنّها تقتضى الخروج عن النظام والبنيّة لأجل التأويل وإدخال المرجع الذي يكون "دي سوسير" قد أخرجه من مكونات دليله.

غير أنّ البحوث اللسانية الأخيرة استعادت دراسة الصورة من جديد، حيث أصبحت مبحثا لسانيا ابتداء من تناول "جاكوبسن" موضوع الشعرية " la poétique"، بل أصبحت الاستعارة تتربع على علوم أخرى مجاورة، منها: الفلسفة، السيميولوجيا، الأنتروبلوجيا العلوم الذهنية وحتى العصبية..... وتوجّه البحث الاستعاري توّجهات جديدة وأعيدت قراءة الطروحات الأرسطية، حتى أنّ " G. Kleiber "كليبر" يذكر حوالي 3500 بحثا استعاريا ما بين سنوات 1985 – 1990 .[1]

لقد انفتح البحث الاستعاري على علوم كثيرة مختلفة، متعددة، ربما هذا ما يعطي مشروعية تناوله مبحثا جديدا لأنّه سوف يتناول موضوع المتلقي، أي المؤول بدلا من المنتج أو البنيّة اللغوية باعتبار أنّ القارئ / المؤول هو الذي يقرر باستعارية الكلام، يؤسس الصورة، كما أنّه بإمكانه إلغائها واعتبارها كلاما غير مفيد بالمفهوم" السيبويهي". لذا يمكن القول أنّ البحوث الاستعارية بعد أن اهتمت بالتركيب وبنيته أصبحت تهتم أكثر بالقارئ / المؤول وانتقلت من محاولة فهم تركيب الصورة إلى محاولة فهم تركيبة ذهنية القارئ.

كيف يشتغل ذهن القارئ أو السامع وهو يؤول استعارة؟ كيف يصطاد العنصر الاستعاري؟ وكيف يحدده ويتعرف عليه داخل التركيب؟ ثم ما معنى أن يفهم القارئ الكلام الاستعاري؟ هل يفهم المؤول لما يحّل ذلك الكلام الغامض ذي المحتوى المعقد

ويفكّ تلك التناقضات المحتواة داخل التركيب؟ هل يفهم لما يتفاعل وتلك الاستعارة؟ أو يتفاعل مع مرسلها سواء كان كاتبا أو مشافها؟ وهل فهم القارئ هو محاولة الوصول إلى قصدية المؤلف أو المرسل؟ القصدية التي يكون الكاتب أو المرسل عامة قد أخفاها بالضرورة، وإلا ما أنجز كلاما استعاريا، لذا يجهد القارئ ذهنه في محاولة الوصول إلى تلك القصدية المخفية.

لا بدّ أنّ الكلام الاستعاري يؤدي ما لم تستطع اللغة الحرفية تأديته، فما هو هذا الإضافي الذي يبحث عنه المؤول؟ وهل حاجة المؤول إليه مثل حاجة الكاتب؟ هل هي حاجة إلى التخيّل والافتراضية، إن كانت الإفتراضية حاجة بيولوجية؟ هل تلبي الاستعارة حاجات فطرية لدى الإنسان؟ هل يشعر القارئ ببعض الحاجة إلى الاستعارة عند شعوره أحيانا أنّ اللغة الحرفية غير قادرة على توصيل تلك الشحنة التعبيرية التي ينقلها إليه الكلام الاستعاري؟ فحاجة المؤول إذن مثل حاجة المرسل كلاهما يبحث عن شيء إضافي تعطيه الاستعارة ولا تعطيه اللغة الحرفية، لماذا يخفي الكاتب مقاصده؟ ولماذا يتعب المؤول في البحث عن قصدية الكاتب؟

لقد اهتمت الكثير من البحوث بكيفية الإنجاز وهاهي الآن تهتم بكيفية الاستقبال معطية الاستعارة مفاهيم ووظيفة وأهمية جديدة لم تعط لها من قبل. فللاستعارة وظيفة فنية، تعبيرية، تفاعلية، ثقافية، تواصلية، فكرية، سيميولوجية، ... تقول " أروخيوني" أننا لا نمارس الكلام المباشر إلا نادرا، كلامنا اليومي معظمه ضمني "Implicite" [2] وأنّ الاستعارة نحيا بها فعلا حسب كلّ من "جورج لايكوف" و"ومارك جونسن "، كلامنا اليومي غني كلّيا بالاستعارات وكأننا نشعر أنّ اللغة

العادية غير كافية لتأدية القصد فالألفاظ محدودة والأفكار والمعاني غير محدودة، هكذا يؤمن الكثير من الباحثين منذ الدرس الكلاسكي لحدّ الآن.

لم يعد التأويل الاستعاري إذن حكرا على نخبة مخصوصة تقرأ الشعر وتتماهى وشاعرية الشاعر لأنّ الاستعارة تلبي حاجات يومية ضرورية لأجل التواصل وتضيف إلى الكلام العادي مثلما تضيف الصورة إلى الكلام الشعري . توسّع المعنى . لم تعدّ الاستعارة مسألة أدبية، فنية فقط، بل هي ضمن أساليب الحديث اليومي. لقد توّسعت هذه النظرة إلى الاستعارة لما أدخلت هذه الأخيرة ميادين علمية أخرى ولم تعد حبيسة البحث البلاغي وحده فهي تحيط بنا من كلّ جانب نرددها، نداولها في حياتنا اليومية، نحن نردد ونؤول الكلام الإيحائي يوميا داخل صيرورة لامتناهية " un continum" تحت ما يسمى بالكلام المجازي أو الكلام غير المباشر الذي يمكن أن يتضمن: الألغاز، الأمثال الشعبية، الحكايات والأساطير السردية..... حيث تمرر الأمم والجماعات تجاربها ضمن هذه الأساليب غير المباشرة غير أنّ المقصود بهذه الاستعارية ليست "الاستعارت التي نحيابها " [3] بالمفهوم الوارد عند كلّ من "جورج لايكوف" و"مارك جونسن"، إذ اسعاراتهما لا ننتبه إليها تندرج أكثر ضمن اقتصادية اللغة، وليست في حاجة إلى تأويل بما أنّ الكلام غير متناهي والمعاني غير متناهية فالذهن ليس بإمكانه إبداع ألفاظ وروابط جديدة عند كلّ موقف وتخصيص كلّ شيء وكلّ فعل باسم محدد يلجأ إلى نوع من التعميم في توظيف اللغة لأنّه لو كانت اللغة محددة، دقيقة ومنطقية لأدى ذلك إلى خضم من الألفاظ يصعب على الذهن البشري تخزينها، استيعابها واسترجاعها عند الحاجة. فهي نوع من الاقتصاد اللغوي متضمن في طبيعة

اللغة يمثل ذكاء الأفراد في الاقتصاد وعدم تحميل الذهن ما لا يطيق، هي اقتصادية اختزالية تكشف ذكاء الجماعة المتواضعة واكتفاءها بما يؤدي مهمة التواصل والتفاهم.

إنّ الفعل الاستعاري حاضر باستمرار في لغتنا اليومية، فإن كان الشاعر أو الأديب يأتي بتلك الأساليب لأجل التزيين وتجميل الكلام، لماذا يلجأ المتحدث اليومي إلى توظيف الاستعارة؟ هل هناك أغراض تنميقية الحديث وتزيينه؟ أم هناك مقاصد اختزالية من باب خير الكلام ما قلّ ودلّ؟ هل هي مجرد مبالغة عند التحدث؟

إنّ المشتركات بين الاستعارة اليومية والاستعارة الأدبية كثيرة، منها على الخصوص: حاجة الإنسان إلى الترميز لأجل التأويل، حاجته إلى الإخفاء / الإظهار، إلى التعبيرية، أما الاختلافات فيمكن إيجازها في بعض النقاط، منها:

الاستعارات اليومية مسكوكة، جاهزة التأويل لا تستدعي الكثير من الجهد الذهني لأجل الفهم، لأنّها مؤلفة منذ القديم، تتوارثها الأجيال مشافهة، والمتلقي يكون عارفا بالمعنى المخفي مسبقا، وتأويلها متعارف عليه داخل المجموعة الممارسة لتلك اللغة وفي غالب الأحيان تكون مجموعة موحدة اللغة والثقافة، لذلك يمكن تأويل الكثير من الاستعارات أنثروبلوجيا أو سيميولوجيا أكثر من تأويلها لغويا، فهي منغمسة داخل الحياة الثقافية ومتجذرة فيها. هي استعارات غير مبدعة مثل لغة الأدب والشعر، بل تدرج ضمن الأساليب الجاهزة، إذ المرسل لا يبدعها وإنّما يرددها ويداولها داخل خطابات تواصلية لأجل تبيين مقصوده بدقة، لأجل تقديم نباهته وبداهته عند التحدث، وذكائه عند الممارسة اللغوية، لأجل تأكيد كلامه، لأجل البرهان والحجة

وهو أحد الأغراض الأساسية من توظيف تلك الاستعارات، تكثر مثل هذه في أساليب السخرية التي تؤول تأويلا سياقيا خاصة، وتفسر بما هو خارج عنها.

– إنّها استعارات تصبح بحكم التداول إرثا ثقافيا وملكا للمجموعة اللغوية وليس ملكا للأفراد، ربما تكون التداولية بشكل عام قد شجعت على تناول ودراسة هذه الاستعارات باعتبارها أكثر تداولية، أكثر خطابية، أكثر تواصلية وأكثر انتشارا بين الأفراد المتكلمين، سواء كانوا منجزين أو مفسرين، وأنّ جانب تزيين الكلام يكون واردا ولا يمكن إبعاده كلّيا، كما يبدو أنّ موقف التحدث يلعب دورا كبيرا في الانجاز وتأويل هذا النوع من الاستعارات، وأنّ أغراض المنجز أو المؤول . بالكسر. كثيرة، منها:

– إخفاء المعنى لظروف سياقية معينة.

– تزيين الكلام وإبداء براعة في التحدث.

– إظهار براعة لتلبية أغراض تعبيرية خاصة بالفرد.

– القدرة على البرهنة والتأكيد على القول.

– الحاجة إلى الإخفاء.

– إثارة الحاجة إلى التأويل لدى المتلقي.

– إنّ فهم مثل هذه الاستعارات اليومية لا تفترض معارف لغوية مثل الاستعارة الفنية بل تفترض معارف سيميولوجية . ثقافية . اجتماعية، حيث تعتبر الاستعارة اليومية فعلا

تواصليا، ثقافيا حضاريا . سيميولوجيا أكثر منها فعلا فنيا أو تركيبا لغويا معقدا يجب حلّه.

تدرج هذه الاستعارات ضمن تأسيس الجماعات لمفاهيم تحيا بها وهو ما يمكن أن يطلق عليه مفهوم " المفهمة " "la conceptualisation"، حيث تؤسس الأمم مفاهيم تسيّر بواسطتها الحياة الروحية والذهنية والتخييلية مثلما تسيّر قضاياها الاقتصادية، إذ ≪ عندما يقرر شخص معيّن بأنّ أحداثا معينة تتوافق فيما بينها لأسباب ما، فإنّه يشكلّ مفهوما أي يتخذ قرارا بشأن تمكن من تصنيف بعض الأشياء، كما يميز بعض التشابهات التي تتواجد فيما بينها، فيتخذ القرار تبعا لها دون أن ينشغل بالاختلافات، إذ وحدها التشابهات، أي الصفات الأساسية، هي التي تكون مهمة، وقد يحدث ألا يتواجد هذا المفهوم المشكل بهذه الصورة تبعا للمواضعات أو يكون خاطئا، ورغم ذلك فهو يؤدي مؤقتا وظيفته في تنظيم العالم بالنسبة للشخص الذي يشكّله، وبفعل الزمن والتجربة، يتحدد المفهوم ويصبح موضوعيا [4]. فالاستعارة اليومية بنيّة مفهومية تنقلها الخطابات المستمرة إلى عبارة وتصبح مع الزمن مقولبة مسيّجة داخل تركيب لا يمكن الخروج عنه سواء من طرف المرسل أو المتلقي على السواء.

لقد تطرق" Michel Prandi " ميشال برانتي " إلى هذا الصنف من الاستعارات، ذلك أنّ المجتمعات تقولب وتشكلن تجاربها الخاصة بواسطتها [5] وبالتالي تؤسس مفاهيم عن تجارب الحياة ككل. لقد عولجت كذلك هذه المسألة من طرف كلّ من " Turner" تورنير" و"Lackoff " لايكوف " 1989، مثل الوقت كالسيف . الموت مرّة . الحياة كمن يمر على ظلّ شجرة . فهي استعارات تلخّص تجارب الأمم التي تخلدها

على شكل بنيّة لسانية قصيرة تستقل بذاتها وتجعلها على شكل مفهوم. يقول عنها " Lakoff et Turner" تورنير" و" لايكوف " 1989: ≪ الاستعارة القاعدية هي كذلك لأنّها تكون ضرورية كمفهوم.≫ [6] وبالتالي تصبح هذه المفاهيم استعارات تلخّص تجارب الأمم داخل مجموعة لغوية معينة، ويعطي " لايكوف " نماذج عن هذه الاستعارات التي يسميها بالقاعدية، مثل " الحياة سفر ". الكثير من هذه الاستعارات تضمّن حتى داخل الأشعار أو السرديات وتوظف توظيفا ترميزيا، مثل " الموت رحيل "، وقد عالج "Blumberg" "بلونبرق" 1960 هذا النوع من الاستعارات وسماها بالاستعارات المطلقة وعالجها كذلك Weinrich "وين رايش" 1958 واعتبرها خاصية من خصوصيات الذاكرة، أو بمثابة أرشيف الذاكرة.

فعلا إنّها اختصار للتجربة الإنسانية على شكل عبارة أو بنيّة استعارية يسهل على الذاكرة الاحتفاظ بها، هي بنيّة مفهومية ضرورية للحياة الذهنية بشكل عام، يقول عنها "لايكوف /تورنر" 1989 ≪ إنّ الاستعارة تكمن في الفكر وليس في الكلمات.≫ [7]. تؤول هذه الاستعارات على أنّها مفاهيم ويؤتى بها في أغلب الأحيان لأجل الإقناع والحجة أثناء التحدث حيث لا كلام بعد هذا الكلام، ووصفت هذه الاستعارات القاعدية على الشكل التالي:

- هي استعارات مطلقة عند "بريبارق".

- هي حقول استعارية عند "ويرايش".

- بنيات مفهومية استعارية عند "لايكوف".

– إنّها عبارات . مفاهيم مستقلة بذاتها، أو يمكن أن تستقل بذاتها وقد تسمى بالاستعارة الحيّة لأنّها أكثر تداولية ويندرج هذا النوع من الاستعارات ضمن عملية تشكيل المفاهيم داخل المجموعات البشرية، وقد تتم العملية بطريقة غير واعية وغير إرادية من طرف الأفراد الذين يحاولون اختصار التجربة الحياتية ويظلون يختبرون صدق تلك العبارة وصحتها على مجرى الحياة.

– إنّ تأويل مثل هذه الاستعارات يتمّ بطريقة عفوية في غالب الأحيان ويعتمد موسوعة ثقافية . سيميولوجية . اجتماعية، حيث تظل الترميزية عامة ضرورة ذهنية لدى الأفراد، وتخليدا للتجارب، تساهم في بناء المتخيّل الجماعي لدى المؤول والكائن البشري بشكل عام.

2 . المقبولية الاستعارية.

إنّ التأويل الاستعاري يفترض الحديث أولا عن قبول الاستعارة، لماذا يقبل المتلقي بعض الاستعارات ولايتقبل أخرى؟ لماذا يقبل . هذا الرجل أسد . دالا على الشجاعة ولا يتقبل . هذا الطفل كالنملة . للدلالة على المثابرة وحسن التدبير؟ لماذا يقبل الأولى مع أنّها مستهلكة منذ مدّة طويلة؟ لماذا استقرت الأولى، ولم تعتبر الجملة الثانية كلاما استعاريا؟ هل تلعب الصدفة السيميولوجية أحيانا دورا في تقبّل بعض الاستعارات وعدم قبول أخرى؟ هل يمكن التحدث عن حسّ أو حدس استعاري، بل على **مقبولية استعارية** مثلما تحدث " شومسكي " عن الحدس والمقبولية اللسانية؟ فالمؤول مثله مثل ممارس اللغة عند " شومسكي " يقبل جملا في لغته ويرفض أخرى دون تقديم أي تبرير على أحكامه، فالقارئ . السامع

يمكنه أن يتقبل كلاما على أنّه استعاري ويستحسنه وربما يتفاعل معه ويردده ولا يتقبل كلاما آخر وينفر منه ولا يصنّفه أبدا على أنّه كلام استعاري.

لقد اهتمت البحوث مدة طويلة من الزمن بكيفية إنجاز الاستعارة وكيفية الاشتغال البسيكولوجي أو العصبي. اللساني فيما يخص الإنجاز، بينما تكون قد أهملت كيفية التعرّف على الخطابات المجازية وكيفية اصطيادها والاعتراف بها خطابات ترميزية، لذا يتحدث " G. Molinié" موليني " عن الحسّ الاستعاري" le sentiment métaphorique عند تفريق المتلقي بين الكلام الاستعاري والكلام العبثي أو [8] لغة المجانيين، فإن رجعنا إلى الأسلوبية السلوكية عند Riffattere " ريفاتير " مثلا، يمكن القول لماذا تحدث عبارات أثرا لدى القارئ ولا تحدث أخرى؟ إذ يعود حينها الحديث عن التأويل انطلاقا من العصبية الفزيولوجية neuro – physiologique ، كذلك التأويل عند J Petitot " بوتيتو " هو تأويل سلوكي وعبارة عن استحضار المثير، وهو ذاك عند" أيزر " في "نظرية الأثر" la théorie de l'effet والتفسير السلوكي للقراءة الجمالية بشكل عام.

لقد عالج E.Eco " إيكو " **المقبولية الاستعارية** عند حديثه عن الموسوعية البلاغية للقارئ، وتحدث عن تعرّف القارئ على العبارة أو الجملة على أنّها استعارية. قد يرجع ذلك إلى الكفاءة اللسانية للمتلقي وإلى إرثه البلاغي الذي تعلّمه وخزّنه منذ مدة. فقد يمتلك القارئ . السامع نماذج استعارية مخزّنة في الذهن تصبح على شكل رسومات ذهنية يتقبّل بواسطتها استعارات ويرفض أخرى بطريقة غير واعية في غالب الأحيان.

يرجع الكثير من الباحثين إلى اللغة العادية مقياسا للاستعارية وكأنّ المؤول يقارن الكلام المعقد بلغته العادية ويعتبره تجاوزا لها، ولكن ما هي اللغة العادية، أو المستوى العادي للغة؟ مستويات الاستعمال عديدة: فهي لغة التحدث اليومي، هي اللغة الأدبية البسيطة التي يكتب بها الصحفيون مقالتهم وهم من ذوي الأساليب الرفيعة في الكتابة، هي كذلك لغة الخطباء الذين يمتلكون كفاءة عالية عند التحدث وإلقاء خطبهم . الفصاحة بالمفهوم البلاغي القديم . هل هي لغة الذين يقولون ما يجب قوله في الوقت الملائم وفي المكان الملائم وللمتلقي الملائم؟ هل هي لغة الإذاعة والتلفاز؟..... فبأي مستوى من مستويات الاستعمال يقارن المتلقي الجملة ويجعلها مقياسا لقبول الاستعارة أو رفضها؟

إنّ مرجعية قياس الكلام الاستعاري تعتبر غامضة في الكثير من الأحيان، لعل المؤول يرجع إلى المستوى الذي يمارسه أكثر من غيره، لكن يبدو أحيانا أنّ أغلبية المجموعة لديها نفس درجة المقبولية، وكأنّ المتلقي يمتلك حسّا جماعيا استعاريا حسب المجموعة اللغوية وحتى الأنثربولوجية الحضارية التي يتواجد داخلها، أي الفرد/الجماعة. كما يبدو أحيانا أنه يرجع إلى بعض العقلانية أو المنطقية، وحتى منطق العالم الذي يتواجد داخله وينتمى إليه، إلى محيطه الخاص الذي يشترك وإياه مع الجماعة في الكثير من الأنماط اللغوية والسلوكية بما فيها **المقبولية الاستعارية**. كما يمكن القول أنّه يرجع إلى مخزونه الثقافي . السيميولوجي والضمير الجمعي أو الحس الجماعي والأبعاد الأنثروبولوجية التي يحيا داخلها أكثر مما يرجع إلى اللغة الممارسة . حتى وإن كانت الحضارة والثقافة والهوّية متضمنة داخل اللغة .، مع ذلك تبقى اللغة اللسانية أحد العوامل المهمّة في قبول بعض الاستعارات ورفض أخرى، يقول" سعيد الحنصالي"<<تتيح القواعد اللسانية أيضا ل" د " أن يكشف استعمال

عبارة بالمعنى المجازي» « [9] يمتلك المؤول إذن مخزونا أسلوبيا يشترك فيه مع الجماعة اللغوية، كما يمكنه أن يمتلك كذلك موسوعة أسلوبية استعارية فردية يتقبل على أساسها الاستعارة أو يرفضها

يتكلم "موليني" عن حسّ التلقي الفطري وهو يتحدث عن السيميو . أسلوبية، فعند طرح السؤال: هل توجد استعارات أدبية يجيب " موليني" بالنفي، بل توجد خطابات يمكن أن تستقبل على أنّها استعارات[10]، فهي لديها قابلية للأدبية عند التلقي، أي تتلقى أو تستقبل على أنّها خطابات استعارية. مع ذلك يبقى مقياس تقبّل الاستعارة فكرة غامضة لا يمكن تحديدها بدقة، غامضة ومتشعبة قد ترجع إلى عوامل أخرى لم تعالج بعد من طرف اللسانيين وربما لم نعها بعد تكون متجذرة داخل النفس البشرية.

3. فهم داخل البنية الاستعارية.

3. 1 . فهم البنية الإسنادية.

إنّ الحديث عن **الإسنادية** يكون بالضرورة حديثا عن النحو والنواحي التركيبية للغة التي اهتمّ بها "شومسكي " منذ البدايات الأولى لتأسيسه نحوه التركيبي سنة 1957، لكنه رغم انتقاله إلى اللغة الذهنية مازال نحويا، نحويا ذهنيا، حيث أصبحت اللسانيات برمتها مباحث ذهنية إبتداء من النحو الكلّي والبرنامج الإختزالي ونظريات ما بعد التفسير... وغيرها من المقاربات الأخيرة التي يمكن اعتبارها كلّها ضمن المباحث الذهنية و" شومسكي " أحد مؤسسها سنة 1956. رغم كلّ تلك التطورات وانتقاله من اللغة الخارجية إلى اللغة الداخلية . الذهنية . مازال "شومسكي" نحويا حتى وإن ربط نحوه أخيرا بالبيولوجيا، ما زال

النحو تعطى له الأولوية عند محاولة تفسير أي رسالة كانت، وقبل الانتقال إلى المسائل الدلالية ومعالجة أي محتوى سواء كان بسيطا أو معقدا، إذ معالجة أي رسالة لا بدّ أن تكون تركيبية أولا، فحتى المفاهيم الذهنية بقيت عند "شومسكي" مؤسسة للفكر الإسنادي أولا [11].

لقد اهتم الشكليون الروس بكيفية تركيبة الأدبية وحلل الفعل الاستعاري بنيةّ لسانية ولعبت الدراسات التي قدمها " جاكوبسن " دورا كبيرا في فهم الاستعارة تركيبا غير تركيب اللغة العادية، وكأنّ موسوعية القارئ متضمنة في معرفته النحوية والعمليات الإسنادية، وخاصة إدراكه تلك الثنائيات التقابيلة المتواجدة داخل النص الأدبي. فالقارئ يتعرف على الاستعارة من خلال التركيب الإسنادي، أي يعيّن العنصر اللساني الذي يثير التأويل، وهذا العنصر تمييزي بالضرورة.

إنّه التفسير التركيبي الذي استرجعه Tamba " تونبا" 1977-1981 وكذلك " تامين " Tamine 1976-1979، طوّر هذا الاتجاه وأسس فيما بعد ما يسمى **بنحو الاستعارة** grammar of metaphor " لكل منRose "روز" و Brooke "بروك". يؤمن الإتجاه بوجود تراكيب نحوية خاصة بالاستعارة تختلف بالضرورة عن تراكيب اللغة العادية، ويهتم المؤول هنا بالتعيين والتحديد قبل أن ينتقل إلى التفسير والتأويل.

عولجت فيما بعد التراكيب الاستعارية على أنّها تراكيب غير متناسقة، حيث يتعرف عليها المؤول انطلاقا من لاتناسقها، إذ هي خطابات توجد بها تراكيب تتضمن كلمات غير قابلة التجميع، يعطي"M: Prandi" "ميشال برنتي" المثال التالي: .كانت

أمي حقلا حقيقيا من القمح . Gursel ، Ma mère était un véritable [12] champ de blé(ربما للدلالة على شحابة وجهها) فهي جملة غير متناسقة ولكنها دالة، هي تراكيب يؤسس لها نحو خاص، شكلي تكون مهمته الأساسية تحديد مثل تلك البنيات. فالقيمة الاستعارية تكمن في الارتباط connexion بين العناصر اللسانية داخل الجمل وتكمن الاستعارة في القدرة الارتباطية le pouvoir de la connexion ويتضمن الفهم االتحليل اللساني ودراسة التمفصل ما بين الوحدات التي تتمّ بواسطتها العملية الإسنادية، كأن تكون علاقة غير متناسقة بين الفعل وفاعله، أو مابين المبتدأ والخبر .كانت أمي حقلا حقيقيا من القمح .، حيث تمّ إسناد كلمة الأم إلى الحقل، أو ما بين الفاعل وأحد توابعه أو نعوته . جاء المجرم البرئ . وتكون العلاقة غير تناسقية في تومضع داخل لطافة هذه الابتسامة . Il s installa dans la douceur de ce sourire (.Giono»)[13] المؤول يحدد إذن الاستعارة من خلال العملية الإسنادية والعلاقات الارتباطية بين العناصر، وما هذا النحو الاستعاري إلا نحو إسنادي خاص بالتراكيب غير المتناسقة.

غير أنّ اعتماد العمليات الاسنادية وحدها يبدو أحيانا غير كاف، لأنّ هناك تراكيب غير متناسقة ولكنها غير استعارية، بل تبدو عبثية كجملة "شومسكي" . الأفكار الخضراء تنام بغضب . لذا يسلك "برانتي" مسلكا ثانيا وهو مسلك دلالي، حيث يتحدث بعده عن التجاوز المفهومي. ففهم الانسجام يكمن في المحتوى، والتأويل لا بدّ أن ينتبه إلى البنية الاسنادية ثم بعد ذلك إلى الناحية المفهومية، وكأنّ موسوعية القارئ/ السامع متضمنة للمعرفة اللغوية النحوية وغير النحوية كذلك.

إنّ الكفاءة التأويلية للقارئ تكمن في اكتشافه لتلك اللعبة الاسنادية الاستبدالية / التبادلية والتعرّف على تلك البنية الغائبة حسب " أرسطو " . هذا رجل أسد . يقدر الكلام: أنّ هذا الرجل يشبه الأسد في شجاعته، فعلى المؤول استحضار معارفه اللغوية ونقل تلك الاستعارة إلى مستوى لغوي آخر حسب " همسليف "Hjelmslev . عليه إذن التعرّف على تلك العمليات الاستبدالية وتفكيكها وإرجاعها إلى الصنف النحوي الأصلي.

يبدو أنّ القراءة الأولية للكلام غير المباشر قد لا تمس النحوية أحيانا، فقد لا يتعرف القارئ على لا نحوية الجملة وعدم تناسقها ولكنه يقرر أنّ هناك فعلا استعاريا، مثل السخرية، كأن ينطق أحدهم: . أنت أيها النجيب . وهو يقصد الكسول حيث يحاول القارئ من الوهلة الأولى قبول ذلك التناقض على أنّه فعل استعاري وليس عبثيا أو هذيانا، ويتعرف مباشرة على الفعل الاستعاري بطريقة تبدو سريعة إلى حدّ ما، إضافة إلى الاستعارات المشتقة التي تستنتج ولا وجود لأي قرينة لغوية تشير إلى استعاريتها على المستوى السطحي للتركيب، لذا يدعو الكثير من الدارسين إلى تداوليتها. ولكن رغم عدم كفاية التحليل الاسنادي لأجل التأويل يبقى في غالب الأحيان ضروريا لأنّ الاستعارة لغة قبل كلّ شيء واللغة دلالة كذلك مما استوجب الانتقال إلى المحتوى.

3 . 2 . التأويل الدلالي للاستعارة.

3. 2 . 1 . التاويل القاموسي.

لقد تحدث F. Rastier "فرنسوا راستي" في معالجته لنظرية الاستعارة عن لسانيات الكلمة واعتبر أنّ الاستعارة تحدث أولا في الكلمة وعملية الاستبدال تكون إسم

باسم وفعل بفعل، حتى وإن أدخل فيما بعد كلّ المجال الاشتقاقي للكلمة ضمن الاستعارية.

يعتمد التأويل القاموسي إذن الوحدة المعجمية لأجل فهم وتأويل الكلام، فا ﴿﴿الاستعارة تحويل اسم الشيء إلى شيء آخر بواسطة القياس ﴾﴾[14] . لعلها **الكلمة** الوحدة اللسانية التي تسمح للقارئ بالتعرّف على الاستعارة . فالرجل أسد . تحلل وتفهم على أنّ الاستعارة تكمن في مفردة "الأسد" وهو المشبه به، إن اتبعنا المقاربة التشبيهية. كما يستند المؤول على القياس لأجل فهم المماثلة والمخالفة الكامنة في الجملة، فالمماثلة تكمن في الشجاعة، والمخالفة تكمن في الفرق بين . الأسد الحيوان والأسد . الانسان. يفهم القارئ جملته حسب المنطقية التالية:

- مبدأ المطابقة: أ هي أ، وهو المبدأ الذي اعتمده Paul Ricœur "بول ريكور ".
- مبدأ التناقض أ ليست أ.
- مبدأ الثالث المرفوع.

حيث أنّ:

الرجل هو الأسد.

الأسد لا يكون رجلا.

لا رجل لا أسد.

إنّ أهم انتقاد وجّه لهذه المقاربة هو إهمالها للاستعارة نسقا شموليا، إذ يعالج القارئ في هذه الحالة لاستعارة معالجة ذرّية. فالرجل يشبه الأسد في شجاعته، أو هذا الرجل شجاع مثل الأسد في شجاعته، فكلمة "رجل " المعنى/ القاموسي تشبه كلمة " الأسد" المعنى/القاموسي الحيوان الشجاع. لقد أعيب على هذا النوع من الفهم التحليل الذّرّي وتشرذم التركيب، ـ حتى وإن عالج المحتوى ـ، لذا يمكن القول أنّ الفهم في هذه الحالة قد يبقى محدودا، ـ وإن كان ضروريا ـ، إذ هذا المحتوى لا يمكن تحديده إلا عبر سياق لغوي أو غير لغوي لأنّ الكلمة منفردة لا تكشف عن كلّية **الصورة** مثلما سماها القدماء، أي استحالة قيام الجزء منفردا، بل لا بدّ من اكتمال الصورة حتى تفهم فهما " جشطالتيا ". فالتأويل القاموسي قد يكون كافيا في حالة الاستعارة ـ لمقطع ـ، أي الجملة المصغرة مثل: . هذا أسد . وأنا أقصد أنّه شجاع، وقد يصير التأويل غير كاف داخل النصيّة أو تشابك وتشاكل الاستعارات داخل االمقطع الواحد، مثلما نرى ذلك في البيتين الشعريين التاليين:

فأمطرت لؤلؤا من نرجسن وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد.

حيث تتشابك الاستعارات وتتداخل فيما بينها، يقول "إمرئ القيس ":

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل[15].

يقول " السعيد الحنصالي " عن هذا النوع من التأويل : «وبالتالي فهو لم يعتبر سياق الخطاب والدلالة الإيحائية التي تنتجها المتوالية الكلامية في قصيدة أو حكاية، وهي تخص أساسا مقاصد المتكلم ومقتضايات النص وبنية المتخيل التي يبتدعها تلاحم الاستعارات والرموز وتراكبها، مما يخلق سياقا تأويليا متفردا يختص به نص دون غيره» [16]

ففي استعارة السخرية مثلا يبقى سياق الكلام ضروريا، مع تنشيط المخزون القاموسي لدى المؤول واستحضار سياق لغوي آخر محيط بالجملة البسيطة، أو سياق غير لغوي يفيد السخرية والاستهزاء لأجل استخلاص البؤرة الاستعارية التي تعتمد وحدة للفهم.

3. 2 . 2 . التأويل الدلالي غير الذّري.

قسم الفرنسي "كلبير" التفسيرات الدلالية إلى عدّة أقسام:

. التفسير الدلالي الإجمالي: التعيين والتحديد والتفسير.

. التفسير الدلالي . السياقي.

. التفسير الدلالي البنيوي لكل من "كاتز" و" فودور " 1969، حتى الوصول إلى التفسير الدلالي . التداولي[17].

يعدّ " كلبير " السابق الذكر من الذين عالجوا المسألة الدلالية داخل التأويل الاستعاري في بحث له بعنوان: " من دلالة الاستعارة إلى براغماتيتها "، حيث اهتمّ فيه بمعالجة الاستعارة وتبيان عدم كفاية المقاربة الدلالية ووجوب انتقال عملية التحليل إلى التداولية، حيث تفهم الاستعارة تجاوزا للكلام العادي المعروف لدى المتلقي تواصليا، وحيث تصير اللغة العادية هي مقياس الاستعارية.

تبدو المقاربة الدلالية مهتمة أكثر بالمحتوى الضمني للكلام دون أن تنتقل إلى ذهنية المؤول وكأننا مازلنا نهتم بكيفية الانجاز أكثر مما نهتم بكيفية الاستقبال، وإن صعب أحيانا الفصل التام بين: التعريف، التحليل، التلقي والفهم، مازلنا نهتم بالمعنى المخفي -

المروي عنه - بعد أن اهتمينا مدة من الزمن - بالمروي به -[18] دون أن نهتم بكيفية فهم المحتوى المعقد الذي يجب أن يشتغل ويتعب القارئ لأجل استخلاصه.

لقد عالجت هذه المقاربة الفهم معالجة منطقية وخاصة داخل فلسفة اللغة، من الذين عالجوها من هذا المنظور "موليني" وكذلك"رجاء عيد" وغيرهم كثير، إذ يفترض أنّ المؤول بعد أن يصطاد العنصر اللساني ويقرر باستعارية التركيب، عليه بعد ذلك أن يتقبل بعض التناقضات. فهي مقاربة مرجعية تستند بالضرورة على الواقع الخارجي ففي . الرجل الأسد . يرجع المؤول عند تأويلها بالضرورة إلى مميّزات "الأسد" باعتباره فخورا وملك الغابة، فهو فخور وشجاع، وبما أنّ الرجل شجاع وفخور فهو يشبه الأسد، تفسر الاستعارة إذن بالرجوع إلى العالم الخارجي غير اللغوي، فالمؤول عليه قبول الرجل الحيوان، أي قبول واقع غير حقيقي. إنّ الاستعارة تناقضية بالضرورة تستدعي وقتا أطول للفهم والتأويل، بالتالي تفترض الدلالية ككل الرجوع إلى الواقع لذلك اعتبرت آخر مستوى عالجته اللسانيات . نظاما.

تعالج هذه المقاربة الاستعارة كلاما مبهما، معقدا يحتوي صراعا تناقضيا على المؤول فكّه، فالعناصر الشكلية اعتبرت غير كافية لأجل الفهم، لذا كان يجب الانتقال إلى البنيات المفهومية لأجل تحليل وفهم المحتويات المعقدة. لقد افترضوا حلّا تناقضيا مفهوميا لأجل الفهم والتأويل مثلما نرى ذلك في البيت التالي لأبي الطيب المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرّ، كوضع السيف في موضع الندى.

فالصراع المفهومي يكون بين الندى الدال على الورد والسيف الجارح القاطع. يقول "ميشال برنتي" ≪هل يمكن اعتبار الاستعارة بنية مفهومية ينقلها الخطاب اللساني إلى العبارة وهي علاقة مفروضة على المفاهيم بواسطة بنية لسانية مستقلة؟≫[19] يمكن إذن للبنية الاستعارية أن تشتغل بنية مفهومية بذاتها ويمكن معالجتها تناقضا مفهوميا خارج أي سياق. يربط إذن "برانتي" ما بين البنية اللسانية والبنية المفهومية، وكأنّ الاستعارات من هذا النوع تصبح مقولبة capsulées . فالتناقض إذن إسنادي . قاموسي . دلالي ومنطقي كذلك، ورغم هذا التناقض فالجملة منسجمة والصراع قائم، وهو أحد خصوصيات المحتويات المعقدة.

4 . الفهم الاستعاري وموسوعية القارئ . فهم خارج البنية الاستعارية ..

4 . 1 . موسوعية القارئ.

لما تطورت العلوم الذهنية بعد تأسيسها سنة 1956 أدرجت الاستعارة ضمن البحوث المعرفية، وطرح حينها سؤال مهم جدا، ماذا يجرى بالضبط داخل ذهن القارئ وهو يؤول كلاما مجازيا؟ ما هي الخطوات الذهنية التي يقوم بها المؤول؟ وغير هذه التساؤلات التي تحاول فهم كيفية اشتغال الذهن البشري عند التأويل. لقد أصبحت الاستعارة مبحثا ذهنيا بعد أن كانت مبحثا أدبيا بلاغيا ثمّ مبحثا لسانيا، وعوجلت هذه المقاربة من طرف الكثير من الذهنيين، منهم: "Orthony" أورتوني "، 1979 Searle " سورل " 1982، Bawer "بوير / كليبر" 1984 و Turner "تورنير" 1988، و"برانتي" 1992... وغير هؤلاء كثير.

لقد اهتمت الذهنية بكيفية حساب المعنى لأجل فهم الاستعارة، حيث جاءت " أوريخيوني" مثلا بثلاث مراحل أساسية يسلكها القارئ / السامع عند محاولة فهم الاستعارة، وهي:

. توقف القراءة الحرفية، وتوظيف آليات الاشتقاق.

. التوّجه نحو نوع من أنواع المجاز.

. اصطياد أو اكتشاف المعنى المشتق والمناسب للسياق.

هي مراحل يأتي ترتيبها بطريقة منطقية، لكن هذا لا يمنع من الذهاب والإياب بين هذه المراحل المتتابعة.فحسب "أوريخوني" المؤول يدفع ثمن التمتع متضمنا في الجهد الإضافي الذي يقوم به الذهن أثناء العملية التأويلية، المؤول يتمتع حسبها بأكذوبة فنية حينية.[20]. فكيف نقيس إذن مدى تفاعل أو عدم تفاعل المؤول والكلام الاستعاري؟ خاصة أنّ الكثير منا يؤمن أنّ الاستعارات وجدت لأجل تزيين الكلام وأناقته، وأنّ وظيفتها الأساسية متعة القارئ/ المؤول بالدرجة الأولى. ربما ينطبق هذا على الكلام الشعري في القصيدة أكثر مما ينطبق على الأنواع الأخرى من الاستعارات، فالفن للفن وحده هو الذي يؤمن أكثر من غيره بأنّ الاستعارات وجدت لتزيين الكلام، وهنا قصدها التأثيري . الانفعالي واضح، وهي الحاملة للشعرية وبؤرة الفنية داخل القصيدة.

يتمتع المؤول وينجز كلاما مكافئا أو مرادفا للكلام الاستعاري، ينجز كلاما بديلا، أو هذا ما نظنه على الأقل، حيث يعيد المؤول المعنى بمستوى آخر من مستويات اللغة حسب " همسليف" فهو يقوم بعملية ترجيحية يرجح فيها بين مفهومين متناقضين

متصارعين يضمهما في غالب الأحيان الكلام الاستعاري.هل يسلك جميع المؤولين المسالك نفسها وهم يمرون من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ويقطعون المراحل الذهنية ذاتها أثناء العملية التأويلية؟ يبدو أنّ لإجابة تكون نافية بالضرورة، لأنّ الكفاءة التفسيرية حسب "راستي"، والكفاءة البلاغية حسب "جيكرو" والموسوعة البلاغية حسب "إكو" وعالم القارئ حسب "بول ريكور" مختلفة بالضرورة عند المؤولين، حيث تلعب المعارف المسبقة والخلفية المعرفية لدى القارئ دورا مهما في سرعة التعرّف على الكلام الاستعاري وقبوله وسرعة تأويله كذلك.

عولجت حينها المعارف المخزنة لدى القارئ موسوعة لغوية . ثقافية بعد أن كانت موسوعة نحوية أو قاموسية وحتى منطقية. إنّ هذه الموسوعة مفهوم مفترض من طرف معالجي التأويل الأدبي، هي تضم معارف لغوية وغير لغوية، خليط لا يمكن حصره ولا تحديده ولا التنبؤ بحجمه، ولا بكيفية استحضاره عند التأويل. فهي مفهوم مطاط جدا، كلّ باحث يعطيه مفهومه الخاص ربما حسب حاجته إلى تحليل هذه الموسوعة والمقاربة التي يعتمدها في التحليل ومحاولة فهم كيفية فهم الكلام الاستعاري. تظلّ الأغلبية من الباحثين تؤمن بها معرفة مسبقة مضمرة يستعين بها المؤول، ومن الذين آمنوا بوجودها كلّيا "إيكو" وعالجها في الكثير من مؤلفاته، منها: "Lector in fabula" على وجه الخصوص، فهي التي تؤسس المجال الإيحالي للقارئ يستشف منها ما يحتاجه أثناء التأويل.

إنّ تعريف هذه الموسوعة في حدّ ذاته غير متفق عليه: هي عبارة عن ذاكرة جماعية مخزنة لدى القارئ، مفترضة عند التحليل أو التأويل، هي فهرس مضمر يحرك من طرف القارئ، كما يمكن أن تكون تأويلات مفترضة مخزنة في ذهن المؤول لا يتحقق منها إلا

القليل أثناء العملية التأويلية. هي بمثابة قدرات ذهنية كامنة، مضمرة تشبه إلى حدّ كبير مفهوم اللغة عند "دي سوسير" والكفاءة اللسانية عند "شومسكي" وميزتها الأساسية تكمن في عدم تناهيها مما يفترض لا نهائية التفاسير، الفكرة التي يرددها كثيرا "إيكو" في مختلف مؤلفاته والتي استقاها عن سمياء Peirce "بيرس" في تعريفه للدليل.

هذه الموسوعة ذاكرة ثقافية وفرضية إبستمولوجية لا بدّ منها لأجل عدم قتل النصوص وتركها تشتغل باستمرارية مطلقة داخل صيرورة زمنية لا محدودة، هي كذلك تناص حسب مفهوم Kristeva "كريستيفا" التي تقول بأنه لا نص جديد أبدا، بل النصوص تتلاقح وتتقاطع فيما بينها يخزنها القارئ لأجل تأويل نصه أو مقطعه الاستعاري. هي مختلف القراءات السابقة المخزنة في الذهن، هي مختلف النصوص المقروءة، هي معرفة ثقافية سيميولوجية ضرورية لأجل تأويل استعارات داخل مجموعة لغوية معينة، هي استعارات سابقة خزّنت وكوّنت لدى المؤول رسومات ذهنية أصبح فيما بعد يؤول على أساسها الاستعارات الجديدة، اكتسبت "كفاءة " مثلما اكتسب متكلم اللغة كفاءته، هي قراءات فنية رسخت في الذهن وأعطت المؤول قوالب تأويلية ينطلق منها ويقيس عليها في آن واحد. هي قدرة القارئ الكامنة التي تجعله يتفطن إلى الكلام المخفي ويبحث من خلاله عن قصدية يكون الكاتب قد أخفاها لحاجة ما.

هكذا تصير الدلائلية غير متناهية، خاصة عند "إيكو" وهو التأويلي الذي يقترب كثيرا من "بول ريكور" الذي عالج المسألة بطريقة مشابهة، حيث تحدث عن monde du texte "عالم النص" و monde du lecteur "عالم القارئ"[21]، وهو ذاته

مفهوم الموسوعية التأويلية، حيث تمتزج هذه الموسوعية (عالم القارئ) وعالم النص لأجل إنجاز تأويل نصي.

لقد ساعدت الكثير من البحوث الجديدة في توّجه التأويل الاستعاري وجهات أخرى مختلفة وقدمت مقاربات وبدائل أخرى مستجدة لأجل معالجة الاستعارة بشكل عام وتأويلها بشكل خاص منها العلوم النفسية . المعرفية عند معالجتها للعلاقة بين الممارسات اللغوية والبنيات الفكرية وكشفها عن العلاقة الوطيدة أو التفاعلية الكاملة مابين البنيات اللسانية والبنيات الذهنية، وكذلك البحوث البيولوجية والعصبية، منها: معالجة الذاكرة وطريقة ارتباط المعارف وتخزينها في الذهن وعملية الاسترجاع، وكذلك الحاسوبية / اللسانية والهندسة الفضائية... وغيرها كثير قدّمت كلّها معطيات جديدة لتطوير وتحليل محاولة فهم فهم الاستعارة وآليات التلقي الذهني وكيفية اشتغال هذا الأخير عند معالجة النصوص ذات المحتويات المعقدة. قدّمت هذه البحوث بدائل أساسها التفاعل البيئ والثقافي . الانثروبولوجي والعلاقة التي يكوّنها المؤول مع محيطه أو عالمه بمفهوم "ريكور"، وكيفية تمثّل اللغة ومحاولة حلّ التناقض الاستعاري.

كما يمكن أن تلعب المناهج والطرق التدريسية التي تلقاها المتعلم داخل المدارس والثانويات أو الجامعات دورا مهما وربما أساسيا في كيفية التأويل، فإن أعطي التلميذ مقاربة تشبيهية مثلا سوف يتبعها بالضرورة ويعالج الاستعارة فعلا تشبيهيا ونقل المجرد إلى المحسوس، وهو التأويل الغالب الذي يقدمه الطلبة، حيث يصبح آلية أوتوماتكية، مسكوكة، فالاستعارة لا بدّ أن تفسر أو تؤول على هذه الطريقة وليس على غيرها. فالمؤول يكون قد اكتسب آليات تفسيرية يتموضع داخلها سياجا تأويليا. لعل هذا ما نلاحظه

داخل أقسامنا التدريسية، حيث تعيد أغلبية الطلبة نفس التأويل ربما بالعبارات نفسها. لقد نمط التأويل مع مرور السنوات التدريسية ولم تتغيّر آلياته وبقيت منمطة مع مرور الزمن.

4 . 2 . كيفية تخزين المعارف في الذهن والفهم الاستعاري.

لقد توّسعت العلوم الذهنية خلال العشريات الأخيرة من الألفية السابقة، أدخلت مجالات متعددة بما فيها الأدبية واللسانية عامة، لأنّها قدّمت مقاربات جدّ مهمة، بل جدّ مغرية تعالج كيفية تخزين المعرفة وكذلك الاهتمام بكيفية اشتغال الذهن عند الاستقبال بما فيها استقبال الكلام الاستعاري وتأويله. لقد عالج الذكاء الاصطناعي الدلالة والدلالة التصويرية وشبكية المعلومات داخل الذهن وقدمت مقاربات ونماذج لا حصر لها، منها نموذج Collins et Quillian "كولان وكيلين" لسنة 1969. يقوم هذا النموذج على فرضية تمثيل المفاهيم على شكل شبكة من العقد وسمي بصاحب النماذج المحققة type/token، حيث الذاكرة الدلالية تتكون من مجموعة من العقد تترابط فيما بينها، و«يرتكز نموذج Q على تعددية للعقد المتصلة فيما بينها بواسطة أنماط مختلفة من الروابط التجميعية. كلّ مدلول لوحدة معجمية يحتوى في جزء ما من الذاكرة على عقدة تمثل مقبوليته والمسماة هنا بالاصطلاح البيرسي المفهوم المجرد type »[22].

يعرّف كلّ مفهوم داخل الشبكة بالعلاقات التي يقيمها مع الوحدات الأخرى، أو المفاهيم الأخرى كعلاقة الإحتواء مثلا، وأنّ كلّ عنصر في رأيهما لا يتواجد إلا مرّة واحدة لأجل اقتصاد التخزين، كأن تكون عقدة الطيور التي تتوزع إلى عقد أخرى: دواجن، طيور جارحة... وبالتالي ف "الذاكرة الدلالية "la mémoire sémantique" . وهو

عنوان المؤلف . تحدد على شكل تنظيم تصنيفي تترابط داخله تمثّلات. فعند قراءة جملة . الكنارى طائر . تنشط داخل الذهن كلمات مفاتيح: كنارى وطائر، والذهن عند محاولة فهم الجملة يبحث عن العلاقة الرابطة بين المفهومين التي تربط بين عقدتين. يحاول النموذج قياس الوقت الذي تتم فيه عملية تحقق الجملة: فجملة . الكنارى لديه ريش . تفهم بسرعة من جملة . الكنارى يأكل . وذلك حسب العلاقات والتقاطعات التي تفرق ما بين العقد التي ترتبط بها تلك المفاهيم ومميزاتها داخل الشبكة، فكلّما كان عدد العلاقات مابين العقد كبيرا كلّما كان الوقت المخصص للتحقيق وإثبات وجود علاقة ما بين العقد المستغلة أطول.

فماذا لو طبقت بعض مبادئ هذا النموذج على فهم جملة استعارية؟: . الرجل أسد ـ الأكيد أنها تأخذ وقتا أطول لأنّ الذهن سوف يربط بين عقد تكون أولا متابعدة: الحيوانات ككل، ثمّ الحيوانات المفترسة، ثم مميّزاتها، حتى الوصول إلى الأسد التي تربط بعقدة الرجال وأصنافهم من شجعان وجبناء حتى الوصول إلى "الرجل الأسد"، ثم العلاقات التي تربط بين العقدتين المتباعدتين كي يصل القارئ إلى الربط بين المفهومين ويؤسس فهمه الاستعاري. لقد كانت لهذا النموذج مجالات تطبيقية واسعة ثم أعيدت مراجعته من طرف كلّ من "كلان" وهو أ حد مؤسسه مع زميل له Loftus "لوفتس" سنة 1975.

فالمعارف في الذهن مخزنة على شكل نظامية شبكية متماسكة يسحب منها المطلوب لأجل الفهم أو التأويل، ثم يعيد النظام الذهني ترتيب عقده أو تنظيمها من جديد. يقول الحنصالي: ﴿إنّ وحدة عالم المحتوى هذا الذي يتمثل حجمه لا حسب

تراتبية متصلبة بل حسب نموذج Q، يسحب من الإنتاج الاستعاري ومن تأويله فرصة إعادة البنينة في عقد جديدة من الممثالات والمخالافات»[23].

لقد مثلّت المعرفة الذهنية على شكل شبكات مفهومية دلالية داخل الذاكرة الطويلة المدى وربطت بعلاقات، مثل علاقة الاحتواء، الارتباط، الملكية، وحاول الدارسون تمثيل الهندسة الاستعارية على الشكل الشبكي الذي يشكلّ مرجعية القارئ أثناء عملية الفهم، بالتالي تكون مراجع الفهم والتأويل قد انتقلت من البنية اللغوية "الاسنادية"، "القاموسية"، "المنطقية" و"الدلالية" ومن البنية الاجتماعية عند "دوقلاس" Douglas و Martine Burgos وغيرهم من ذوي المقاربة الاجتماعية في القراءة الأدبية، ومن البنية التاريخية عند المدرسة الألمانية ل Jauss "يوس" وغيره، والنفسية عند M. Picard "ميشال بيكار" و أيزر".... إلى البنية الذهنية للمؤول باعتباره مخزّنا لمعارف منتظمة ترسبت في الذاكرة الطويلة المدى وتسترجع عند الفهم والتأويل.

إنّ ما يميّز معظم المقاربات الذهنية التي عالجت الاستعارة اعتمادها الدلالة الذهنية la sémantique cognitive وتضمنت مقاربات عديدة، منها: الدلالة التصويرية التي تقوم على الجشطالتية في الإدراك وكيفية النظر إلى العالم المحيط وكيفية تمثّله وبناءه.

. نظرية الأطر والفهم الموحد ل Fillmore "فيلمور" وتسمى بنظرية المداخل المعجمية، الفهم القاموسي والفهم الموحد لمجال من مجالات التجربة، وقد اعتمدت المقاربة نظرية الحقول الدلالية التي جاء بها Trier "تراير" بعد الثلاثينات بقليل.

. مقاربة الفضاءات الذهنية أو الحقول الذهنية champs cognitifs لدى الفرنسي Fauconnier "فوكوني"، حيث تتآلف الألفاظ كي تعني مجالا موحدا، وهو الباحث كذلك عن العلاقة بين اللغة والعالم الفيزيائ، مع أنّ هذه الفضاءات لا تدعي تمثيل الواقع بدقة ولكنها نموذج ذهني مثالي لا يطابق الواقع بالضرورة، وهي مقاربة تشبه إلى حدّ ما فكرة العوالم الممكنة في الفلسفة، تحدث فيها "فوكوني" عن المعنى الهامشي والمعنى البؤرة الذي يبقى له الدور الأساس في تحديد المعاني الهامشية.

4 . 2 . 1 . التصنيفية.Catégorisation

هي مفهوم يتضمن تقسيم الفكر داخل الذهن إلى أصناف أي أنظمة فكرية des systèmes de pensées، وهو كذلك فرضية ضرورية لأجل تفسير كيفية التشابكات الداخلية les interconnexions للوحدات اللغوية داخل الذهن.

إنّ **التصنيفية** فعل عفوي يقوم به الإنسان منذ البدايات الأولى من حياته، وإلا كيف يتعرف الطفل الصغير على اللون الأحمر وينتبه إليه؟ وكيف أنّ كلّ الرجال أباء له؟ وكأن التصنيفية تبدأ مع البدايات الأولى للإدراك وتبدو متجذرة داخل عمق النفس البشرية، وهي عملية ذهنية معقدة قد تهمّ الأنظمة الترميزية التي تحيط بحياة الفرد. فالذهن يصنع تصنيفيته بطريقة فطرية عفوية وربما لاإرادية، كأن يصنّف أفعال الخير والشرّ، أو يؤسس تصنيفية سلّمية القيّم لديه ويقيّم الأفعال إلى أفعال خيّرة وأخرى شريرة، وعلى الشاكلة نفسها تصنّف الحياة الترميزية والأبعاد السيميولوجية التي تعطى لبعض ألوان اللباس مثلا وأنواع الأطعمة وبعض سلوكات التفاؤل والتشاؤم وغيرها... يقوم الإنسان إذن منذ

البدايات الأولى من حياته بتصنيف الأشياء والأفعال والرموز وحتى الأفعال المجردة للعالم المحيط وأغلب هذه التصنيفات إن لم تكن كلّها تقوم على المشابهة أو تؤسس على المشابهة، وهو المبدأ الذي تؤول على أساسه الاستعارة في أغلب الأحيان.

إنّ العملية الأولى التي يبدأ بها المؤول هي تصنيف الكلام الإيحائي إلى: استعارة، كناية، تشبيه، تشبيه بليغ، مجاز مرسل... وغيرها من الأصناف الدالة على الكلام الاستعاري التي توظف في المرحلة الأولى عند تعيين أو تحديد البؤرة، ثم يبدأ المؤول في تحليلها وبعد ذلك تأويلها. لقد سبق ل " إيكو" معالجة التأويل الاستعاري انطلاقا من المفهوم التصنيفي الذي عالجه تحت موضوع الكفاءة الموسوعية المستقاة عن الكفاءة البلاغية ل Ducrot "ديكرو"، كأن يحلل استعارة . درب الحياة .، فيقول:

الصنف الأول: إنّ الحياة تجري في صيرورة زمنية مستمرة.

الصنف الثاني: الحياة تجري في صيرورة فضائية، أي درب الحياة.

الصنف الثالث: هو الصنف المؤقت الذي يفسر على أساسه الكلام الاستعاري، وهو الذي يجمع ما بين الزماني والمكاني، حيث يصبح الزمن فضائيا إلى حين، وهو ما يطلق عليه مصطلح التفضية "spacialisation" [24] وهو صنف مؤقت، يجبر المؤول على قبول هذا التناقض التصنيفي ويخلق لنفسه انسجاما تحت صنف ذهني ثالث يمزج فيه بين الفضائية والزمنية، وتفسر الاستعارة داخل عالم منسجم رغم تناقضه.

أن نقول شيئا ما فإننا نذكر شبيهه، نحن نجمع ونربط بين الأشياء على أساس المشابهة التي يعالجها "جاكوبسن" حتى عند الأفازيين: كأن يأتي مريضه بشوكة وقد طلب

منه سكين، ولكن الشوكة كانت بديلا للسكين لأنّها تنتمي إلى نفس المجموعة، أي آلات الأكل couvert فحدثت لديه اضطرابا نتيجة اعتماده على الوظيفة. أما في حالة استبدال السكين بالمبراة أو مقشر البطاطيس أو سكين الخبز، فقد حدثت لديه تجميعات تخص كيفية الاستعمال والتي تعتمد علاقة المجاورة "contigüité" وهنا تظل علاقة المشابهة ممكنة وعلاقة القياس قائمة والهوّية الوظيفية تامة. كلّها أدوات قاطعة، أي هناك مشابهة فيما بينها، فوظيفة الأشياء وكيفية استعمالها قد تجعلنا نضعها تحت نفس الصنف، إنّها حقول ذهنية حسب "فوكوني".

لقد أحضر المريض الشوكة "ب" بدل السكين "أ"، بالتالي يمكن أن تكتب المعادلة التالية: أ=ب، وهي نظرة "بول ريكور"، حيث أ=ب إذا كانت "أ" تنتمي ل "ك" الذي هو مجموعة مفتوحة وكذلك "ب" تنتمي إلى "ك"، وبالتالي فالعنصران يشتركان في "ك" أي أدوات طاولة الأكل. فحسب "جاكوبسن" علاقة المشابهة مثبتة وموجودة حتى عند الأفازيين، إذ المريض لم يحضر قلما مثلا بدل السكين ولكنه أحضر الشوكة اعتمادا على تصنيفية المشابهة الوظيفية[25]، فإن شبهت هذه العملية بنظرية الحقول الدلالية، فإنّها تطرح إشكالات كإمكانية انتماء عنصر واحد إلى صنفين مختلفين أو حقلين مختلفين، وربما هذا ما يعقد عملية التأويل الاستعاري ويفترض حضور السياق لأجل حلّ المسألة.

إنّ التعب الذهني الذي يكلّف المؤول هو أن يشغّل ذهنه داخل صنفين مختلفين في آن واحد، ويجمع بين تناقضات: المشابهة والاختلاف كي يؤسس صنفا ثالثا غير سابق الوجود داخل الذهن يؤول على أساسه الاستعارة، يحصل إذن القارئ / السامع على صنف ثالث عندما يصطدم المركب الاستعاري بشيء غير موجود في تصنيفه الذهني، ومن هذا

المنطلق تكون العلوم الذهنية قد أعطت صفة الإبداعية للقارئ الذي يشارك بدوره في تأسيس الكلام الاستعاري ولم يعد مجرد مستهلك، مفسر، مستوعب، بل مشارك في إنتاجه وبلورته كذلك فعلا تخييلا مهما كانت مقاصد إنجازه والبنية اللسانية التي تحتويه والسياق الذي يرد فيه سواء كان لغويا أو غير لغوي، ذلك أنّ المؤول يضيف جديدا بالمعنى الإضافي للكلام الاستعاري، يكون بالضرورة من إنجازه وخاصة إن نشط ذلك الكلام داخل عملية تواصلية.

لقد غيّرت العلوم الذهنية النظرة إلى الاستعارة بشكل عام سواء فيما يخص: التعريف، البنية، ووالوظيفة التي تؤديها بالنسبة للفرد أو الجماعة. وبما أنّها نقلت اهتمامات البحث من البنية اللسانية إلى البنية الذهنية تكون قد ربطت التأويل بمسائل إدراكية كالذاكرة والشبكة المفهومية للقارئ والتخزين المعرفي بشكل عام، وأدرجت أخيرا حتى الوضعيات الفيزيائية التي يتواجد داخلها المؤول وتأثيرها على التأويل وهو ما أكدّ عليه "فوكوني" وكلّ من "لايكوف" و"جونسن" في مؤلفهما "الاستعارات التي نحيا بها".

فالاستعارة إذن ليست تسمية شيء بشيء آخر فقط، وإنّما تبنى المتخيّل الفردي والجماعي، وتعتبر فعّالة وناجحة كلّما ساعدت على توسيع أفاق ذهن المؤول وربطت بين موسوعية الذوات المؤولة والقالب اللساني الذي ترد فيه. يحدث إذن نوع من الاتفاق السرّي ما بين المبدع الأول والمبدع الثاني الذي يفترض أن يوضع داخل سياق أو وضعية تأويلية، فتأويل الاستعارة النصّية قد يختلف عن الاستعارة الخطابية. فحتى وإن كانت الاستعارة تخترق التعاقد اللغوي المتواضع عليه بين المرسل والمرسل إليه، لكن المرسل "س" لما يرسل الرسالة "ع" يعرف ضمنيا أنّ المرسل إليه "س2" سوف يفهم "د"، أو يفترض أنّه سوف

يفهم "د" وإلا ما كان أرسل ذلك الكلام غير المباشر. هو يعرف أنّ "س2" سوف يفهم كلامه الضمني، وأنّ التباسية الدلالة قد تصبح اتفاقا جديدا بين الطرفين.

يتحدث Wilson "ولسن" عما يسميه بالأثر المعرفي الذي تتركه الاستعارة في ذهن المؤول، هذا الأثر الذي يمكن أن يكون تعديلا في المعتقدات، حذف اعتقادات سابقة، إضعاف أو تقوية اعتقادات سابقة، غير أنّ هذا الأثر المعرفي يمكن تطبيقه على أي **معرفة جديدة** يحصل عليها القارئ، فكلّ معرفة تعتبر جديدة بالنسبة إليه تغيّر منظومة معارفه المخزنة، ثمّ تعيد بعد ذلك المنظومة ترتيب نظامها من جديد حاذفة أو مضيفة أو معدّلة . وهو مفهوم الملائمة عند "جون بياجي" . لذا يمكن القول أنّ التأويل الاستعاري تكمن أهميته في كونه **معرفة جديدة** تضاف إلى موسوعية القارئ، أي المعرفة القديمة، وميزتها تكمن في كونها **معرفة تخييلية** تصبح فيما بعد مرجعية ذهنية تخييلية حسب "بول ريكور".

يدفع القارئ / السامع جهد التأويل غير أنّه يحاول في الوقت نفسه أن يحافظ على قانون الميل إلى أقل جهد ممكن، وهو ما يسميه "ويلسن" بقانون الاقتصاد في الجهد المبذول، غير أنّه ما قيل عن المبدأ الأول يمكن قوله عن المبدأ الثاني حتى وإن كان في حالة استقبال الرسالة الاستعارية يكون المجهود أكثر اعتبارا وقد يكون مصحوبا بمتعة "أحلى الشعر أكذبه".

إنّ المؤول يستحضر من موسوعيته ما يحتاجه لأجل التأويل في ذلك الحين وفي الوقت نفسه تحدث الاستعارة تغييرا مهما داخل موسوعيته البلاغية أو الاستعارية، كأن تغيّر

في أساليبه التأويلية، في بعض أنماطه ورسومه الذهنية التي يؤول على أساسها الاستعارة، وتطوّر بالضرورة المخزون المعرفي والبعد التصويري لديه بنوع خاص من المعارف التخييلية.

لكن إلى أي حدّ يمكن توظيف تلك المقاربات الذهنية والاستعانة بها لأجل فهم فهم الكلام الاستعاري؟ ربما نحن نستعير تلك المقاربات لأننا لم نجد بعد بديلا جديرا لتعويض التأويل الكلاسكي، ومع ذلك يبدو أنّ الاهتمام الكبير الذي أعطي للمؤول لم يكن من الاهتمامات الكبرى للاستعارة الكلاسكية حتى وإن أشير إلى ذلك من حين لأخر عند بعض القدماء.

ربما مازلنا لم نمتلك بعد الأدوات الضرورية الخاصة بتحليل هذه المسائل بطريقة علمية، وأنّ علم النفس الذهني هو الذي اهتم أكثر بكيفية تخزين المعارف في الذهن بالتالي استعانت به الأدبيات واللسانيات مثلما استعانت في السابق بنظرية التحليل النفسي عند "فريد" Freud .

هل اعتماد هذه الموسوعة المعرفية الذهنية قد فتحت باب التأويل على مصراعيه، ولم توضع حدودا دقيقة للمؤول، مما أدى إلى ما يسميه "إيكو" بـــ"مافوق التأويل" la surinterprétation [26]؟

ماذا يمكن أن تقول مثل هذه المعارف الذهنية وحتى المقاربات الفيزيائية عن موسوعية قارئ جديد وتلاؤمها واستعارات قديمة أنجزت منذ قرون لمتسمع آخر ولكنها مازالت مؤثرة وتستحضر لها موسوعة مستحدثة لمؤول جديد بعيد كلّ البعد عن عصر إنجازها؟

الهوامش:

1 . لمزيد من التوّسع ينظر "كليبر" في:

1. G. Kleiber: de la sémantique de la métaphore à la pragmatique de la métaphore. in: G kleiber et Narine Charbonnel: la métaphore entre philosophie et rhétorique. P. U. F de France 1° Edition Paris 1999.p 4.

2. Kerbrat Orecchioni: l implicite. Armand Colin.Paris.1986. p 272.

3. ينظر كلّ من " جورج لايكوف " و" مارك جونسن " في " الاستعارات التي نحيا بها "، حيث عالجا مفهوم الاستعارة معالجة جديدة واعتبرا أنّ معظم الكلام اليومي استعاري، غير أنّ استعاريتهما لا تستدعي التأويل، وقد لا نعيها نهائيا على أنّها كلام استعاري، كنقل توظيف بعض أدوات الربط إلى استعمالات أخرى بدل الأصل الذي وضعت لأجله، مثل: استعمال: "في"، "على" و"من" فبدلا من الاحتواء والوضعية الفوقية واتجاه الانطلاق، قد ينتقل بها المتكلم إلى وظائف أخرى، مثل: جاء في وقته، لمته على عدم زيارته، كلامه غير متناسق ينتقل من فكرة إلى أخرى.

و قد ترجم المؤلف من طرف المغربي " عبد المجيد جحفة " ونشر من طرف دار طوبال للنشر. الطبعة الثانية. الدار البيضاء بالمغرب. 2009.

4 ـ بريت قاري بارث: تعلّم التجريد. استراتجية لبناء القدرات والكفاءات. ترجمة وتعريب د/ عبد الكريم غريب. منشورات عالم التربية. الطبعة الأولى 2007. ص 24.

5- Michel Prandi. Grammaire philosophique de la métaphore. in Kleiber .cité au n° 1. p. 189

6- Ibid ; même page.

.7 - Ibid ; p. 190

8 - Georges Molinié, la métaphore: limites du trope et réception. in Klieber déjà cité. p. 174 ; 175.

9 ـ سعيد الحنصالي: الاستعارات والشعر العربي الحديث. دار توباقال للنشر. الدار البيضاء. المغرب. الطبعة الأولى. 2005. ص 151.

10 . لمزيد من التوّسع ينظر:

G. Molinié. p. 183

11 ـ لمزيد من المعلومات حول المسألة ينظر:

Jean François le Ny. éléments de psycholinguistique cognitive: des représentations de la compréhension. in Catherine Fuchs dans: la linguistique cognitive. Editions Ophrys. Editons de la maison des sciences de .l homme. Paris. 2004. P ; 156 -157

12 _ M. Prandi: p 184.

13 _ Ibid: 187.

14 ـ سعيد الحنصالي: المرجع المذكور سابقا. ص 21.

15 ـ د/ رجاء عيد: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور. منشأ المعارف الاسكندرية.بدون تاريخ. وقد ذكر البيت الأول في الصفحة 114، وذكر البيت الثاني في الصفحة 116.

16 ـ سعيد الحنصالي. ص 23.

17 ـ لمزيد من التوسع ينظر:

G. Kleiber et N. Chabonnel: p 7

18 ـ تعود هذه المصطلحات إلى د/ أحمد طايعي: التواصل البلاغي. منشورات زاوية. مطبعة أمينة الرباط. الطبعة الأولى 2008.

19 – M Prandi:p 188 – 189.

20 –K Orecchioni. p. 272.

كما يمكن أن ينظر في الموضوع نفسه د/ محمد مفتاح في" تحليل الخطاب الشعري".

استرا تجية التناص "، وكذلك " روميل هارث " في مؤلف كلّ من " صبرة أحمد حسن " و"حمودة سليمان " بعنوان: " التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية." دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثالثة، مكتبة الوادي بدمنهور 2002، وغيرها كثير.

21 ـ يمكن الرجوع إلى كثير من مؤلفات " بول ريكور " منها على وجه الخصوص:

Du texte a l action ; la métaphore vive ; moi-même comme un autre.

22 ـ سعيد الحنصالي: ص 120.

23 ـ نفسه، ص، 153، ويكون قد نقل الفكرة عن "إ. أيكو ".

24 ـ التفضية " la spacialisation " تأسيس الفضاء أو نقل الفضائية إلى شيء غير فضائ، مصطلح ذكر من طرف كثير من الباحثين منهم: " عبد الله الحّراص " في كتابه " دراسات في الاستعارة المفهومية"، كما ذكره " سعيد الحنصالي "، وذكر في "الاستعارات التي نحيا بها ". " مثلما فسّر به " إيكو " أحد استعاراته " درب الحياة ".

25 _ Pactrick Tort: d une interférence native: métaphore et métonymie dans la genèse de l acte classificatoire , in G.Kleiber déjà cité , p 69_70.

26 – E. Eco. interprétation et surinterprétation. P ,U ;F. Paris.1996